صدق الرصافي حين قال"عبيدٌ للأجانب هم ولكن...على أبناء جلدتهم أسودُ"، وهذا ما ينطبق على بعض المجاميع الإرهابية التي تمارس ظاهرة قتل العراقيين على اختلاف مذاهبهم وقومياتهم، تنفيذا لمآرب بعض الأطراف الخارجية التي تسعى لتمزيق وحدة المجتمع وعدم استقرار البلد.
إن الجرائم الشنيعة التي ارتكبوها وسيرتكبونها ، دفعت بالمواطن العراقي إلى ابتكار العديد من الطرق التي يحاول بها أن يكون معرفا به في حالة تعرضه لحادث ما. يطور احمد محمد بين فترة وأخرى قاموس المصطلحات التي يوشم بها جسده، وشم اسمَه أولاً على كف يده اليمنى، ثم أضاف إليه رقم هاتف عائلته، وأخيراً كتب عنوان منزله على ظهره، وهو يفكر اليوم، كما يقول، بإضافة أرقام هواتف أخرى لعدد من الأصدقاء والأقارب، ربما على ساعِده أو على قدمه حتى تتمكن عائلته من العثور على جثته في حال خُطف وقُتل فجأة على أيدي مجهولين، فشقيقه الأكبر كان ضحية النظام السابق في الانتفاضة الشعبانية عام ١٩٩١، والآخر خطف وقتل ولم يجدوا جثته حتى يومنا هذا .

بغداد / إيناس طارق

الوشم على الجسد للتعرّف على الجثث المفقودة

ظاهرة"مجهولي الهوية" مأساة دائمة للعراقيين

حكايات لا تنتهي

أشلاء مبعثرة في الطرقات وفي الأنهار والسواقي تتغذى عليها الديدان والأسماك ويعبث بمصيرهم فاقدو الضمير .. ومن كان حظه كبيرا بإيجاد بقاياه، انتهى به المطاف في مقابر مجهولي الهويّة ، وثائق ممزقة وبعض من عظام، جهود لم تفض إلا لتراكم الحزن وزيادة في الألم، ومحاولات بائسة لتجميع رفات لا يمكن تجميعها.
"أم زمان" على الرغم من القلق الذي راودها لأنها على تواصل مستمر بالسؤال لمكاتب الدفن الكثيرة طوال أربع سنوات تقف لساعات بانتظار مسؤول مكتب مقبرة "جهول الهوية" في محافظة كربلاء ، تصفح في سجلاته الصغيرة عن اسم زمان تقول الأم المفجعة "وبعد بحث لم يدم طويلا أكد لها المسؤول أن ابنها مدفون في المقبرة! عجز لساني عن الكلام وحتى دموعي لم أشعر بها على الرغم من أنها انهمرت مثل المطر" .
وتستطرد بحسرة "ذهبت بصحبة المسؤول إلى المقبرة مسترشدين بخارطة للاستدلال على القبور، حين وصلنا إلى مكان القبر لم أر سوى قطعة حديدية مكتوب عليها رقم ولدي، فصرخت بصوت عال فتجمعت النسوة بقربي، وبكى الجميع على بكائي، وبعدها علمت بأنني لست الوحيدة التي فقدت ولدها، بل العديد من المفجعات بفقدان أولادهن في السنوات الخمس الماضية .

مفقودون سابقون ولاحقون

ويقدر الصليب الأحمر الدولي أن عدد المفقودين، أي ضحايا الأسر والاختطاف والقتل والدفن في مقابر مجهولة، وصل الى ٣٧٥ ألف عراقي سقطوا ضحايا الحرب العراقية - الإيرانية (١٩٨٠- ١٩٨٨) وحرب 'عاصفة الصحراء' في عام ١٩٩١، وتشير تقارير الصليب الاحمر الدولي الى ازدياد عدد المفقودين الى المليون تقريبا، اثر التغيير عام ٢٠٠٣، وحسب المتحدث باسم المنظمة الدولية في آب ٢٠٠٧: 'إن آلاف العراقيين الذين قتلوا منذ عام ٢٠٠٣ قد دفنوا من دون أن يتعرف إليهم ذووهم، وأن هناك أشخاصا يختفون بشكل يومي، والجثث المجهولة الهوية تملأ المستشفيات التابعة للطب العدلي' مضيفا بأن هناك 'نحو ١٠ آلاف جثة جلبت إلى معهد الطب العدلي في بغداد في عام ٢٠٠٦، من دون أن يجري التعرف على هويتها، ولم يتمكن العراقيون من معرفة مصير المفقودين منذ عام ٢٠٠٣، وفي مواجهات مسلحة أخرى طوال العقود الأخيرة. ولا تزال الأسر في العراق، وإيران، والكويت، يحدوها الأمل في معرفة مصير آبائها، وإخوانها، وأبنائها المفقودين'. وقد وجهت المنظمة الدولية نداء لإيران والعراق لإيضاح مصير الأشخاص المفقودين أثناء الحرب فهذه الأسر تتوق إلى معرفة ما حدث، ومن حقها فهم ما حدث لأقاربها المفقودين، حتى ولو تمخض بحثها عن تأكيد الوفاة'.

فحص الحمض النووي

وأشار تقرير المنظمة إلى أن عملية البحث عن المفقودين غاية في التعقيد، بل شبه مستحيلة، وذلك بسبب تردي الوضع الأمني، وانتشار البؤر المسلحة في أنحاء مختلفة من العراق.
وكشف التقرير "أن فحص الحمض النووي يعد واحداً من وسائل التعرف على الجثث في معهد الطب العدلي، وأن العراق يعاني من نقص في الأخصائيين، مشيراً إلى أن عملية فحص الحمض النووي لنحو ٢٠ ألف جثة ومطابقته قد تستغرق سنة كاملة، أو أكثر. وعلى رغم أن الجهات الجنائية والصحية العراقية تستخدم فحوصات الحامض النووي للتعرف على الجثث في مراكز الطب العدلي، إلا أن هذا الأمر مازال محدودا جدا، كما انه مكلف من الناحية المادية، وتستغرق عملية الفحص عدة أشهر. وبحسب إحصاءات أمنية فقد دفنت حوالي ٢٣٠٠ جثة مجهولة الهوية خلال عام واحد (٢٠٠٦ – ٢٠٠٧).

الوشم طريقة التعريف

سلام كان ينتهي من لمسات وشم اسم شاب على ساعده قدم إليه من جانب الرصافة (شرق بغداد) حيث كثيراً ما تخطف «فرق الموت» رجالاً ينتهي مصير بعضهم إلى مقابر الغرباء في كربلاء.
يقول الشاب، الذي طلب عدم الإشارة إلى هويته، أن الأنباء عن الجثث المجهولة التي يتم العثور عليها يومياً في شوارع بغداد، والقصص التي عايش بعضها حول معاناة الأهالي في التعرف على جثث أبنائهم المشوهة أو المُمثل بها، دفعته إلى هذه الطريقة التعريفية.
ويستدرك الشاب وهو ينفض حسراته قائلاً :ربما حتى النقش لن ينفع إذا أقدم القتلة على إحراق جثتي! فيما نجحت طريقة الوشم على الجسد في تمييز بعض الأهالي لضحاياهم من بين عشرات الجثث الملقاة في

رفات ضحايا مجهولي الهوية

ما تبقى من الجثة

زوايا مشرحة بغداد التي قالت الحكومة إنها تسعى إلى تنفيذ مشروع لتوسيعها.
أما إحدى الزميلات التي كلفتني بالبحث عن احد أقاربها الذي اختفى في منطقة حي أور بعد أن كان ذاهباً إلى بيته ولم يبق مكانا إلا وبحثوا فيه عن قريبها لكن دون جدوى، فرحلة البحث حسب قول الزميلة ابتدأت بعد ساعات من اختفائه من المشرحة المركزية في منطقة الباب المعظم كأول خطوة تسبق البحث في مراكز الاعتقال التابعة لقوات الأمن العراقية أو الجيش الأميركي وانتهت في الطب العدلي وشاشات عرض الجثث لكن لم يجدوا قريبها .
ويتعامل العراقيون مع حوادث القتل باعتبارها أمراً محتوماً وتنحصر محاولتهم في البحث عن وسائل لتقليل تداعيات مقتلهم على عائلاتهم.

استسلام لليأس

بينما سندس سلمان التي استسلمت أخيرا لليأس بعد طول بحث عن زوجها المفقود العام ١٩٨٤ في محافظة العمارة إثناء الحرب العراقية الإيرانية، وكان ما يصبّرها الذي يتناقله كثيرون من أن أسرى عراقيين لا يزالون في إيران. سندس تعيش مع أهلها، لم تستطع حتى أن تبدأ حياتها من جديد، لأنها ما زالت الى الآن على ذمة زوجها، فالأعراف الاجتماعية لم تسمح للآخرين بطلب يد زوجة

البحث عن اشارة

من يتعرف على الجثة محظوظ

على ذمة رجل لم يقرر مصيره إلى الآن .
واغلب الأمهات العراقيات، لا يقبلن بالأمر الواقع حتى وان توفرت دلائل موت أبنائهن، فما زالت أم علي تحلم بعودة ابنها الذي وجدت جثته في مقبرة جماعية في منطقة المحاويل (٣٠ كلم شمالي مدينة الحلة جنوب بغداد) . وكان قد شارك في انتفاضة مسلحة ضد نظام صدام حسين عام ١٩٩١، ومنذ ذلك الحين لم يعرف مصيره فالأم لها أمل بعودته . وما زال الأهالي في المناطق والقرى المحاذية للطريق الدولي بين العراق سوريا والأردن يعثرون بين الآونة والأخرى على جثث مجهولة. وشارك حميد الفياض مع الأهالي والجيش عام ٢٠٠٧ في العثور على حوالي ثلاثين جثة في منطقة الثرثار. وبحسب الفياض فانه لم يتم التعرف على الجثث.
وغالبا ما تكون المقابر الجماعية والأنهار والبراري والمناطق المهجورة وقنوات تصريف المياه، المكان المثالي للتخلص من الجثث، إذ يتعمد الفاعلون رميها هناك لغرض إبعادها عن الأعين والتخلص منها بأسرع وقت ممكن.

الصليب الأحمر: عدد المفقودين - أي ضحايا الاختطاف والقتل والدفن في مقابر مجهولة - وصل إلى ٣٧٥ ألف عراقي

وزارة حقوق الإنسان : ١٤ ألف مفقود عراقي منذ عام ٢٠٠٣ غالبيتهم اختفوا في ظروف غامضة خلال العنف الطائفي

تقرير دولي : العراق يعاني نقصاً في أخصائيي فحص الحمض النووي

وغالبا ما يؤدي تفسخ الجثث إلى غياب ملامحها وبالتالي يصعب التعرف على أصحابها.

فوضى أمنية وجثث مجهولة الهوية

ومنذ العام ٢٠٠٨ صارت عمليات معالجة الجثث المجهولة الهوية تحظى باهتمام أكثر بسبب استتباب الوضع الأمني إلى حد ما، وانخفاض أعمال القتل على الهوية.
ويشير بعض أهالي الضحايا إلى الفوضى الأمنية والسياسية في سنوات الاقتتال الطائفي إلى الحد الذي فقد فيه المواطن ثقته بمراكز الشرطة التي تعاون بعض منتسبيها مع الميليشيات، كما شكك آخرون حتى في دور بعض الوزارات التي اخترقتها الميليشيات، لتغيب بين تلك المؤسسات حقائق القتل التي غالبا ما سجلت ضد مجهول في تلك السنوات. وكانت تحقيقات قد أشارت إلى أن الميلشيات نجحت في اختراق أجهزة وزارة الصحة لتمرير جرائمها، لاسيما ما يتعلق منها بالتعرف على الجثث في تلك الفترة.
وبحسب وزارة حقوق الإنسان العراقية، فإن هناك نحو ١٤ ألف مفقود عراقي منذ عام ٢٠٠٣ . والمفقودون الـ١٤ ألفاً اختفوا غالبيتهم في ظروف غامضة خلال العنف الطائفي الذي ضرب البلاد عامي ٢٠٠٦ و ٢٠٠٧، ولم تتمكن عائلاتهم من العثور على جثثهم أو التوصل إلى معلومات تدلل على إنهم أحياء أو أموات أو معتقلون.

منجمون وتجارة البحث

ومع انقطاع سبل معرفة طريق المفقود توجهت بعض الأسر وخصوصا النساء الكبيرات في العمر إلى المنجمين أو كما يدعى شعبيا "أم الخيرة" ، يقول أبو عادل :لم اترك سجناً أو مستشفى أو جمعيات ومنظمات إلا وسألتها عن ابني ولكني لم أصل إلى شيء حقيقي ولم استدل على ابني، لذا قررت الذهاب إلى "المنجمين" الذين بدورهم يؤكدون أن" الزبائن كانوا يسألون عن قضايا تخص الزواج والطلاق والحمل، في حين أصبح عملهم فيه جانب امني وسياسي، فالكثير من النساء يبحثن عن أشخاص فقدوا في أحداث العنف". بينما يقول نائل "فتاح فائل" أصبحت رحلة البحث عن المفقود عملا تجاريا فقد لجأ إلينا الكثير ليعرفوا مصير أولادهم ويدفعون الأموال من اجل الوصول إلى بصيص أمل وكما يقول المثل "مصائبُ قومٍ عند قوم فوائدُ".
هل يمكن لأي كان أن يتخيل حجم الألم والفجيعة والقهر ونحن نرصد ونتفحص صور الأشلاء والبقايا لآلاف الضحايا التي تشمئز النفس البشرية من تقبل فضاعتها، و اقل ما يقال عنها أنها مفجعة ووحشية بحق أبناء هذه البلد شيبا وشبابا. أما الأمهات الثكالى فلم يتركن بابا إلا وطرقنه لكن من دون إجابة، وسقط النظام فتنقلن من مقبرة إلى أخرى بحثاً عن اثر أو إشارة حتى يقمن العزاء لأبنائهم الحاضرين الغائبين ، لم تأت ثمارها جهودهن في البحث.
و تمتاز مأساة العراقيين بأنها ملحمة من الألم، تتنوع حسب أطيافهم ومناطقهم الجغرافية، فمنهم من يعاني العنف والإرهاب المفرط في مناطق محددة، ومنهم من يشتكي التهميش والإقصاء والفقر والتغييب، وآخرون يلوذون بالصمت، فيما يبقون يلعقون جراحاتهم ويحملون آهاتهم بسبب فقد الأهل أو الأقرباء على أمل أن يأتي اليوم الذي تشرق فيه شمس الأمان ليعرفوا المصير الذي آل إليه مفقودوهم.